

106 - تشكلات من: الحضارة والمدنية والحاجة إلى مراجعة

نحن نستعمل كلمتي الثقافة والحضارة بوفرة وافرة، وإلى درجة أقل كلمتي المدنية والعمران، وسوف نقصر كلامنا في هذه اللوحة عن الحضارة والمدنية، ونحن نقدم فرضا (كان جزءاً من مقال قديم)، يحتاج إلى مراجعة.

نبدأ بالتذكرة بالنقلة من البربرية إلى المدنية حيث يرجح أغلب المؤرخين والمفكرين أن المدينة، وما تمتعت به واكتسبته من أدوات، هي المسئولة عن تكوين المدنية التي هي مرادفة - في أغلب الأقوال والمراجع - لما هو حضارة، أي أن التحول إلى التمدن، بما يقدم من فرص وخدمات وتنظيمات تقوم بها مؤسسات هو المسئول عن نشأة واستمرار الحضارات.

فإذا صح ذلك تاريخياً ولغوياً، وصحيح بعضه، فإننا لا شك نحتاج إلى وقفة مراجعة عصرية دقيقة نقف فيها الآن متسائلين:

هل يصدق نفس الأمر في أيامنا هذه "هكذا" مباشرة؟، بمعنى: هل مجرد اكتساب أدوات المدنية هو أمر كاف لإنشاء حضارة؟ من أهم أدوات المدنية الآن: الحصيلة العلمية المتاحة للشخص العادي، والحصيلة التكنولوجية فائقة المعاصرة الجاهزة لاستخداماته، بالإضافة إلى الثروة المعلوماتية في ذاتها، والجاهزة للتطبيق، هل توفر كل ذلك، يؤدي تلقائياً إلى إرساء القواعد اللازمة ليزوغ الحضارة؟ أم أن الأمر أصبح أكثر تعقيداً وأبعد إشكالية؟

الإجابة عندي تميل إلى فرض احتمالات أخرى بديلة، لعلها مفيدة:

الملاحظ الآن أن توفر أدوات التمدن لفئة من البشر في أكثر المدن تقدماً وأوفرها تقنية ومعاصرة لم يعد كافياً لحسن استعمالها لصالح البشر، يصدق ذلك في معظم كبريات المدن الغربية التي تضخمت أدواتها وتطاول بنيانها بقدر ما تضاءلت علاقات أهلها فيما بينهم، إذ تراجع تماسك أسرهما. كما توضحت الإبداعات التلقائية لرجلها العادي، يصدق ذلك في عوالم التضخم التكنولوجي لذاته، منفصلاً عن إثراء وجود البشر.

أفلا يوحي ذلك بضروة التأكيد على التفرقة بين ما هو حضارة وما هو مدنية، بغض النظر عن ارتباطهما التاريخي، وعن أصولهما اللغوية؟

نحن نأمل أن يكون في هذه التفرقة المقترحة ما يساعدنا على تحديد موقعنا وترشيد توجهنا:

نبدأ بإعادة تعريف المدنية بما يناسب العصر على أنها: حالة تتوفر فيها وسائل العمران المدني، من أول أدوات الحياة الراتية من مؤسسات وخدمات، إلى إتاحة المعلومات المختلفة والتقنيات التواصلية على مستوى العالم المعاصر للشخص العادي.

أما الحضارة فيجدر أن يرتبط تعريفها بإضافات نوعية تحدد موقف الإنسان المستعمل لهذه الأدوات، وفي ذلك نقتح نقلة إلى ما يسمى حضارة على الوجه التالي:

إنما تسمى المدنية حضارة إذا ما وعى إنسان عصرها مسئولية امتلاك هذه الأدوات لدرجة تسمح بممارسة استعمالها لما يحقق تعمير الأرض - لا خرابها، وتطور البشر- لا تشويههم أو تآثرهم وعزقهم.

هذا الموقف الأخير يلزمنا أن ننتبه إلى أن نقيس تطور البشر ليس فقط بإنجازات الصفاة في مراكز البحث وعروض المتاحف وبراءات النشر، ولكن لا بد أن يدخل في التقييم والقياس نوعية تعامل الناس مع بعضهم البعض، وعمق مشاعر الأخوة الإنسانية التي ترسي قواعد العقد الاجتماعي السليم، وكذلك القوانين العرفية التي تحكم الفعل اليومي.

بل إن هذا الوعي (الحضارى) قد يتم ويتنامى بأقل قدر من الأدوات إذا ما توفرت الأعراف والأخلاق والممارسات الإيمانية الإبداعية القادرة على بناء الإنسان بأى قدر متاح من أدوات المدنية.

نستطيع الآن أن نلقى نظرة على ما هو نحن، وعلى ما حولنا ومن حولنا في محاولة وضع فروض لتشكيلات من التباديل والتوافيق، تقسم عالمنا المعاصر من خلال درجة توافر هذين البعدين وعلاقتهما ببعضهما البعض.

وفيما يلي بعض ذلك:

1- مدنية فائقة وحضارة مترهلة متراجعة

وهو ما نجده في دول فائقة التقدم محكمة القوانين صلبة المؤسسات، تفيض بالجديد الحكم المنقط بشكل عام، يتبدى ذلك في دور العلم، ومعطيات الصناعات، ومعارض الفنون، ومراكز الأبحاث، ولكن ما أن ننتقل إلى الشارع بعد السابعة أو الثامنة مساءً في كثير من مدنها حتى نجد الأمر مختلفاً، فالناس تلتفت، وتحاف أن تحيى بعضها بعضاً، وتغتمب وتنتهك،

وثمة قوانين تحتية تتحكم في المشاعر والعلاقات والحياة مثل:

- قانون الرعب والقنص،
- قانون الكر والفر،
- قانون البقاء للأخيب والأسرع،

إلى آخر مواد الدستور السرى للمافيا والإرهاب الأحدث!!
مثال: بعض المدن الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية.

2- مدنية وافرة مستوردة، وحضارة زائفة ومقلدة

وهو ما نجد في دول حديثة التمدن فائقة الثراء حصلت على كل وسائل الدول المتقدمة السالفة الذكر، وأكثر، لما لها من إمكانيات مادية، فرصت الشوارع، وأرست وسائل التوصيل والمواصلات، وخطت المدن ووفرت كل وسائل الرفاهية لأغلب أفراد شعوبها، لكنها لا تضيف، ولا تبعد، ولا تطور، ولا يتحاور أبناؤها ندا لندا، بل إن أحادها الأقدر فالأقدر - مادة وأدوات - قد قلبوا الليل نهاراً، وبالعكس، وقد أصبحت "الرفاهية" في هذه المجتمعات هدفاً في ذاتها، وليست وسيلة لإطلاق القدرات واختصار أوقات المعاناة لملئها بالإبداع والموضوعية

مثال: بعض الدول السلبية الثراء مثل أغلب دول الخليج.

3- مدنية متسارعة، وحضارة ممكنة

وهو ما نجد في دول لا تملك وفرة جاهزة في وسائل التمدن ابتداءً، لكنها تسارع في خطى عملاقة لامتلاك ما يلزم منها، بكل الوسائل، وكلما ملكت وسيلة جديدة استعملتها في الفعل اليومي والدفع العام والتنمية بأغلب (أو كل) طاقاتها، وبذلك تقفز فوق قمم التقدم، وبرغم أن وسائل المدنية المتاحة لها هي أقل من الفريق الأول والثاني، إلا أن خطأها وإنتاجها تعد بتأسيس حضارة موازية بشكل ما، لكنها معرضة في نفس الوقت إلى مضاعفات الفريق الأول ما لم تقدم نوعية جديدة للتنمية البشرية والتطور الإنساني

مثال: النمور الآسيوية الحديثة بما في ذلك أندونيسيا، وماليزيا.

4- مدنية مغلقة ومتناثرة وحضارة شكلية

وهو ما نجد في دول تحصل - أو تحاول الحصول - على كم وافر وحديث من وسائل التقدم والمدنية، لكنها توظف ما تحصل عليه في بؤر متناثرة، تُستعمل من الظاهر فيما يشبه العلم دون إضافة في حدود بروتوكولات الأبحاث المغلقة والهامشية، أي التي لا تصب في الفعل اليومي ولا في الوعي العام، وفيما يشبه الإبداع بأقل قدر من الأصالة، فهي تدور حول نفسها بهدف النشر والمكافأة.

مثال: مصر ودول مشابهة في العالم العربي والثالث

5- مدينة ضعيفة وحضارة مُمارسة هادئة

وهي السائدة في المجتمعات ذات التقاليد الآمنة والأخلاق الغربية، عرفنا أو تدينا وإيماناً، وهي مجتمعات تملك قدراً متواضعاً من وسائل التمدن ورفاهيته، هي مجتمعات ينقصها الكثير من معالم التمدن والحداثة، وكذلك من أدوات الرفاهية ومعلومات العصر، لكنها تحافظ على تقاليد فائقة الرقى من حيث دماثة الخلق، أو إكرام الضيف، أو التعاون التلقائي الخلاق، أو العقد الاجتماعي المؤمن للجميع أهلاً وضيوفاً، أو حيوية العلاقة بالطبيعة، أو فعل الإيمان الكادح المسئول، وتوصف هذه المجتمعات أحياناً بواسطة أهل مجتمعات الوفرة المدنية الظاهرة، توصف بالبداية والقبلية دون النظر إلى نوع تماسكها وجوهر حضارتها.

مثال: مجتمعات الصيادين، وزارعي اللؤلؤ في الخليج، وربما مجتمعات سكان الواحات والهنود الحمر وبعض قرى جنوب سيناء، والواحات.

وبعد

ما رأيكم في هذا التقسيم الذي وضعتُ خطوطه العامة منذ أكثر من عشر سنوات؟

ثم عدت الآن لنشره في اليومية وعدلت بعض ألفاظه، وطوّرت بعض عناوينه ومحتواه؟

لكنني ما زلت أجد أنه يحتاج إلى مراجعة لا تراجع،

ما رأيكم؟

ربما كان إسهامكم في التعقيب هادياً لتطوير أو تعديل أفضل؟